اثنان وثلاثون طلقة...

قصة بقلم عثمان سعدي

(الى روح البطل الجزائري الخالد : عمار قتال ..)

.. لقد انحدرت الشمس الى الغروب ، لا بد وانه مضى علي اكثر من ساعتين وانا فاقد الوعي . لكن اين زملائي ؟.. ان سحابة زرقاء تتذبذب امام عيني ، وتحول دون انطلاق بصري اكثر من عشرة اذرع ، ولولا تقشع هذه السحابة بين آونة واخرى لتأكدت ان بصري قد ذهب الى الابد . لا بد وان شمس آب المحرقة قد شوت جسمي طيلة ساعات ، قبل ان تخفف من حدتها نسمات اصيل « الجبل الابيض » . يا لفظاعة هذا الصداع !.. أشعر كأن صدغي صفحتا طبل انهالت عليهما عصي « طبال » بلدية « تبسه » يوم السوق . ليتني أقوى على تحريك يدي واحملهما الى رأسي ، اذن لخففت بضغطهما من هذه الآلام الفظيعة !

هانذا استطعت ان احمل يدي الى رأسي . لكن ، ما هذا الشيء الجاف الملتصق برقبتي وبذقني ، انه دم .. نعم ادركت الآن فقط انني جرحت. لكن ، كيف وقع ذلك ؟ يبدو ان ذاكرتي قد تعطلت ، لا بد وان الجرح خطير ، والدم قد نزف مني غزيرا كسيول « جارسن » . يا للهول !.. ليس اقسى على الانسان من ان يعيش في فراغ : فأجزاء جسمي اصبحت لا تحس الا تلك السنتمترات القليلة من الارض الملتصقة بها ، وتفكيري اصابه شلل ، فصار لا يشعر الا بجزء زمني اقتطع من جسم الزمن الكبير.

يجب عليك ان تخرج من هذا السجن يا صالح ، انه سجن رهيب ، سجن الاعماق .. تتوقف فيه الحواس ، وتنقطع بين جدرانه ذبذبة العقل . لا تفشل يا صالح ، ولتحاول ان تتخلص من هذا السجن ، أنسيت كلام قائدنا العظيم « شيهاني البشير » : « ان عزيمة المجاهد من حديد .. انه ليس كسائر الناس ، لان فيه فقط تتجسم قدرة الله وعظمة الكون ، وسر الطبيعة » .

استطعت ان ارفع رأسي واجعل من مرفقي عمادا له . انني انظر ـ الآن ـ الى جدول الدم المختلط بالتراب الجاف تحت لهيب الشمس ، انه دم كثير ، اسود كالفحم . لكن ، اين انا ؟ وما هي هذه البقعة من «الجبل الابيض » ؟ اجهد نفسك يا صالح ، لا بد وان تحرك دولاب ذاكرتك . أين هي عزيمتك التي عهدتها فيك ؟

ان هذا المكان « شقة اليهودي » ، ولكن كيف جئت الى هنا ؟ انه من البديهي ان اكون قد حضرت مع زملائي المجاهدين ، ونصبنا كمينا لقوات الاستعمار ، وجرحت انا وانسحب زملائي . لكن ، كيف جرحت ؟ ومن من الزملاء الذين كانوا معي ؟ ان حلقي جاف . انني اشعر بظمأ وكأن بيني وبين الماء اجيالا .. اين هي « أداوة » الماء ؟ ها هي ملقاة على بعد بضعة امتار تحت شجرة عرعار .

ـ يجب ان تزحف يا صالح في اتجاهها ، حتى لا يكتب التاريخ انك مت عطشا على بعد بضعة امتار من الماء .

اشعر كأن صخور جبل « العنق » كلها تراكمت على جسمي . اما رأسي فانه ثقيل ، منجذب الى الارض ، وكأن يدي عمتي « خضراء » شدتاه باحكام الى أوتاد من عود البلوط مدقوقة في مرج .

قطعت نصف المسافة في ثلاثين زحفة ـ تقريبا ـ ، ما اطول الطريق . ان قطع المسافة بين « تبسة » و « معسكر » عبر جبال « اوراس » و « جرجرة » و « ورسنيس » اهون علي من قطع هذه الامتار التي تفصل بيني وبين الاداوة . واخيرا لقد وصلت . ولم يبق لي سوى ان امد يدي لاجذب نطاق الاداوة . الا ان هذه الحركة تبدو لي اصعب من الخمسين او الستين زحفة التي قطعتها . واخيرا ها أنذا امسك بنطاق الاداوة ، يبدو لي ان الماء الذي بجوفها ليس بالكثير ، وعلى فقرقعة السائل بداخلها المختلطة بصدمات جدارها مع الارض ، تنبىء انها ليست فارغة .

ـ حاذر يا صالح من ان تسقط الاداوة من بين يديك المرتعشتين ، ويندلع الماء على الارض .. تذكر انها فرصتك الوحيدة للنجاة .

ما ألذ هذا الماء ، فبالرغم من سخونته وأثر المعدن في طعمه .. يبدو لي انه ألذ سائل مر على حلقي في حياتي كلها .. يا لهذا السائل السحري العجيب ! انني اشعر بدبيب الحياة يعود الى مفاصلي .

ايتها الاداوة ! انك جديرة بالتقبيل ! انك « مبروكة » : فالماء الذي تحفظينه ينقذني ـ دائما ـ من الموت عطشا ، وينقذ بندقيتي العتيقة من الذوبان سخونة . ما اعزك عندي ! فكلما نظرت اليك تذكرت ذلك الشاب الطيب الذكي ، الذي اهداك لي ، انه من سكان المدن وموظف في « دار الحاكم » ، يعمل في جهاز « قلم المخابرات » التابع لجيش التحرير، انه من هؤلاء الشبان الذين امتلأت رؤوسهم بالمعارف حتى اصبحنا نخاف عليها من الانفجار . انني لا زلت اذكر البعض من الكلام الكثير الذي قاله عندما التقيت به آخر مرة في « جبل العنبه » ، لقد قال : « ان الفرنسيين دخلاء ، جاؤوا ليذلونا ويغتصبوا ارضنا وينعموا بخيراتها .. اننا نحارب من اجل ان نتمتع بخيرات بلادنا ، ونستنشق هواء الحرية النقي ، اننا لا نحارب من اجل الجزائر فقط بل من اجل العروبة ، بل ومن اجل الانسانية كلها .. بسواعد الفلاحين يأتي الاستقلال .. »

يا للعجب ! ان هذه الثورة لم تعلمنا كيف نسدد الطلقة باحكام نحو صدر العدو ، بل ملأت رؤوسنا بأشياء كانت لا تخطر لنا على بال !.. انني لا زلت اذكر ذلك اليوم الذي دفعتني فيه انفتي من ان اعيش عالة على ابي ، الى التطوع في الجيش الفرنسي ، واذكر كيف ذهبت الى « الهند ـ الصينية » ، وحاربت تحت الراية المثلثة سكان تلك البلاد ، واذكر كيف هرب معظم زملائي الجزائريين المتعلمين الى صفوف « الهنود ـ الصينيين » ، اما نحن الاميين فقد استسلمنا للامر الواقع وحاربنا مع الفرنسيين . وعندما انتهت الحرب هناك رجعوا بنا الى الجزائر وقالوا لنا : « انكم ذاهبون الى محاربة الفلاكة » . وهمس بعضنا في اذن البعض الآخر : ومن يكون هؤلاء « الفلاكة » ؟ هل هم جزائريون مثلنا ؟ هل هم عرب ؟ هل هم مسلمون ؟

وعندما وطئت قدمي ارض الجزائر ادركت ان الفرنسيين انذال يريدون منا ان نقتل اخواننا وامهاتنا وآباءنا ..! فقد صادف ان التقيت بشاب في مدينة « بليدة » افهمني ان هؤلاء الذين جاؤوا بنا لنحاربهم ما هم

الا جزائريون مثلنا ، ثاروا ليمسحوا عن شعبنا العار ، وليمنحوه الحرية والعدالة ، ومنذ ذلك اليوم اصبحت افكر في الفرار من الجيش الفرنسي والانضمام لجيش التحرير .

انني لا زلت اذكر تلك الليلة المشهودة في حياتي ، ليلة انضمامي للمجاهدين : كانت فرقتنا نازلة « بمركز الجرف » ، وكنت اعرف ان المجاهدين على بعد عشرة كيلومترات من هذا المركز . وعندما توارى القمر وراء الافق ، وساد الظلام ، حملت ثماني بنادق ، وكمية هائلة من الذخيرة ، ثم تسللت تحت جنح الظلام . وقطعت المسافة بين المركز الفرنسي ومخبأ المجاهدين ، دون ان اشعر بثقل هذه الحمولة على كتفي ، لقد كان هذا الجبل الذي اقطعه الان مهدا لذكريات طفولتي ، عندما كنت طفلا ارعى فيه قطعان الغنم : فهذا مكان بقر الذئب فيه نعجتنا الصفراء الهائلة ، وتحت هذه الشجرة صنعت « شكوة الجبن (1) » واكلتها مع شقيقي الطالب « سي احمد » وابن عمي خالد . وعند هذه الصخرة تشاجرت مع ابن خالتي محمد وضربته على ام رأسه بهراوتي فأسلت دمه . لقد كان هذا الجبل الذي اسلكه الليلة في طريقي نحو المجاهدين ، مسرحا لذكريات طفولة صارمة ومراهقة عنيفة . وعندما اقتربت من الكهف الذي قيل لي ان المجاهدين يكمنون بداخله ، رفعت صوتي بالغناء حتى ينتبهوا لوجودي فيسارعوا للاقائي ، ولم اكد اخطو عشر خطوات حتى سمعت صوتا يقول لي في صرامة وحزم :

ـ قف . لا تتحرك . من انت ؟

ولم امتلك نفسي من الفرح فصحت :

ـ مرحا .. مرحا .. المجاهدون .. المجاهدون ..

ولكن الصوت صاح بلهجة آمرة :

ـ قل من انت ، وما اسمك ، وما وجهتك ، والا اطلقت النار !

ـ اسمي يا عزيزي « صالح الازرق » ، فررت الليلة من المركز العسكري الفرنسي ، ومقصدي الانضمام للمجاهدين .. ولا شك انك تعرف ذلك فلقد ارسلت لكم بالامس ..

ـ ارم ما بيدك من سلاح ..

وامتثلت للاوامر فتركت البنادق ، ورزمة الذخيرة تسقط لتحدث دمدمة هائلة تطاير لها الحصى .

ـ ارفع يديك .. تقدم ..

وعندما اقتربت من مصدر الصوت وجدت رجلا ملثما مختفيا وراء صخرة ضخمة ، وهو يصوب في اتجاهي بندقيته . ولما مثلت امامه ، وقف وقبض على بندقيته بيده اليمنى ، ثم جس جوانبي بيده اليسرى وهو يقول :

ـ ألا زلت تحمل سلاحا ؟

ـ لا يا عزيزي ، لقد رميت كل اسلحتي ..

ـ انزل يديك وسر امامي ..

وسرت امام الرجل ما يقرب من ربع ساعة ، ثم وصلنا الى باب كهف مظلم حيث شاهدت عشرة رجال واقفين . وصاح احدهم في لهجة آمرة :

ـ من هو يا بو زيد ؟

ـ انه رجل يدعى « صالح الازرق » ..

ولم يكد حارسي يكمل الاسم حتى انطلق واحد من وسط الجماعة نحوي في سرعة البرق ، واحتضنني وهو يقول :

ـ صالح .. كيف حالك يا عزيزي .. لقد بلغتنا رسالتك والاسلحة التي بعثت بها .. لقد انتظرناك كثيرا يا صالح ..

وكان ابن عمي « البشير » . وهكذا اصبحت جنديا في جيش التحرير وصرت اشعر ـ منذ تلك الليلة ـ وكأنني ولدت من جديد : فحياتي لم تعد ترتكز على عنصر الزمن المرتجل القريب ، بل اصبحت تهدف الى مستقبل بعيد ، وترتبط بماض عريق كله امجاد وقيم . كنت ـ كالحيوان ـ لا افكر الا في قوتي وغرائزي ، فصرت انسانا ذا رسالة يؤمن بنبلها وسموها ، ويسترخص كل غال في سبيلها . كنت احارب من اجل قوتي اليومي فصرت احارب من اجل تقييم حياة شعب ، واقامة مجتمع جديد على اسس انسانية عادلة ، تحترم كرامة الانسان ، وتقدس حريته .

عندما كنت احارب مع الفرنسيين ، كان عندي المال واللباس ، والسلاح، ولكن كنت اشعر ـ في غموض ـ ان شيئا هاما ينقصني ، كنت كذلك الرجل الذي بنى قصرا وسط صحراء قاحلة ، وزوده بكل وسائل الراحة التقليدية ، ثم سكنه منفردا ، ولكن سرعان ما اكتشف انه ضائع ان لم يغادر هذا القصر .. وانخرطت في صفوف جيش التحرير وشاهدت الاهوال : قضيت شهورا لم انم تحت سقف ، وامضيت اياما لم اذق فيها طعاما ، وشاركت في معارك امتدت اياما بلياليها ، وفقدت الذخيرة حتى اضطررت الى ضرب جنود العدو بالحجارة او بالسلاح الابيض ، واحتملت برد الشتاء دون ملابس كافية ، لقد ابيض شعري وسني لم تتجاوز الثانية والعشرين من شدة الاهوال ، لكن لم اضعف ولم ألن ، ولم اشعر في يوم من الايام ان شيئا كان ينقصني .

***

ما هذا ؟ انني اسمع اصواتا تشبه تدحرج الحجارة الى الوادي . لعل زملائي رجعوا الى ساحة الميدان ليلتقطوا جثتي بعد ان افتقدوني عند تجمعهم !.. ويحتمل ايضا ان تكون هذه الاصوات صادرة عن الصداع الذي يزداد كل لحظة حدة وعنفا . ان رأسي ينتابه هذا الصداع الفظيع كلما ضربنا سلاح الطيران الفرنسي بقذائف الغاز الخانق . لقد استعمل الفرنسيون الجبناء قنابل الغاز عندما شددنا الهواء على قواتهم البرية ، وقتلنا من جنودهم الكثير . ولو لم تتحرك نسائم « الجبل الابيض » في تلك اللحظة لتفسد مفعول الغاز في الهواء ، لقتلنا عن آخرنا خنقا. يا للفرنسيين المساكين ! يريد جيشهم العجوز ان يهزم جيشا فتيا ، تحارب معه الجزائر كلها ، حتى جبالها ووديانها ، وكهوفها واشجارها !..

لقد قيل ان سلاح الغاز تحرم القوانين الدولية استعماله في الحروب. لكن ، هل للجيش الفرنسي ضمير حافز على احترام القوانين الدولية ؟ لقد ضربونا بالغاز ، وبرصاص « دم . دم . » ... لكن ، أليس للقوانين الدولية سلطة تحميها ؟ يقال ان « هيئة الامم » هي الهيئة التي تحافظ على القوانين الدولية .. مسكين « سي رشيد » ، انه احد هؤلاء الشبان المتعلمين الآتين الينا من المدن .. انهم يقرأون الجرائد ويستمعون للاذاعات كان « سي رشيد » يستفيض في حديثه عندما يحدثنا عن « هيئة الامم » واضعا آمالا كبارا في عدالتها . لكن هل يمكن لنا نحن العرب ، ان نثق في عدالة هيئة باعت ارضنا الطاهرة هناك .. هناك .. في فلسطين ؟!

اما « سي حسن » فقد كان اقل تحمسا من « سي رشيد » . لقد كان يقول : « ان هيئة الامم هي المنبر الذي تفضح من فوقه فرنسا » . لكن فرنسا « ام الفضائح » لم تعد تتأثر بالفضيحة ، فهي كتلك المومس المحترفة التي قضت حياتها في جو مثقل بالرذيلة ، حتى ألفت هذا الجو،

(1) ميزة اختص بها راعي الغنم دون سائر الرعاة وهي ان يصنع الراعي شبكة صغيرة في فصل الصيف يعد فيها جبنا من لبن غنمه في المراعي . ولجبن الرعاة طعم الذ من كل انواع الجبن الاخرى .

وصارت تزاول مهنتها المنحطة وهي شامخة بأنفها .

لا .. لا .. ليس مصدر هذه الاصوات الصداع . بل مصدرها الواقع، انها اصوات اناس يقتربون نحو ميدان المعركة . ليتني اقوى على رفع صوتي حتى يسمعوه ، ويسارعوا لنجدتي .. انهم يقتربون .. انني اسمع نباح كلب يقترب نحوي شيئا ، فشيئا ..

ـ لنقتف اثر الكلب يا « كابران.محمد » ، لا بد وان جثة شهيد هنا . ان لحساسية هذا الحيوان الصغير صدقا فظيعا ..

واخيرا ها هو كلب ابيض ، يطل علي بأذنيه المصوبتين نحوي .. انه لا يزال ينبح وهو على رأسي يبصبص ، فكأنه يقول لرفاقه : « انه هنا » !

ـ من هنا يا « سارجان الهادي » ان الكلب قد توقف تحت هذه الشجرة .

ها هم قد وصلوا .. انهم اطفال لا تتجاوز سن اكبرهم الثانية عشرة ، تبدو على وجوههم سمة الاجهاد .

ـ ها هو الشهيد .. تقدموا في خشوع احتراما لروح هذا البطل .

وانحنى اكبرهم على رأسي فابتسمت في وجهه .

ـ لا .. لا .. انه مجاهد لم يمت .. انه لا زال حيا .. هات قربة الماء يا احمد .. اسرع .

وشربت الكوز الاول، والثاني، والثالث... وكنت ارغب في شرب الرابع، عندما قال لي صديقي الصغير :

ـ يجب ان لا تكثر من الماء يا عزيزي قبل ان تاكل قليلا من الجبن . يبدو انك لم تتناول الطعام منذ مدة طويلة .

وامتثلت لاوامر صديقي الصغير الذي بدأ يزيح الثياب عن جراحي ويتفحصها . وبعد ان اخرج ربطة الدواء من مخلاته راح يعالج جراحي في عناية فائقة .

ـ الحمد لله ان جروحك ليست خطيرة يا اخي . يوجد جرح في فخذك الايمن ، وجرح في اذنك ، واثر صدمة في رأسك .. لكن ، كلها بسيطة وان كنت تحتاج الى عناية تستغرق بضعة ايام .

ووضع صديقي الصغير اذنه على شفتي لكي يسمع الكلمات المتقطعة التي تخرج من فمي في ضعف :

ـ من انتم يا اصدقائي الصغار ؟

ـ اننا رعاة من « دشرة زورة اولاد احمد بن عيسى » . كونا من انفسنا فرقة لاسعاف الجرحى ، والتقاط اخبار العدو ..

ـ لقد سمعتكم تلقبون انفسكم بألقاب عسكرية .

ـ نعم . ان منا « الكابران » ومنا « السرجان » ، ومنا الجندي البسيط .. وكلما قام واحد منا بعمل يستحق عليه التمجيد اجتمعنا وقررنا ترقيته .

ـ وما اسم فرقتكم هذه يا صديقي الصغير ؟

ـ اسمها فرقة « السارجان الزين » !

ـ وهل انت هو « السار الزين » !

ورفع صديقي الصغير رأسه الى السماء فكأنه يريد ان يستمد منها الجواب ، ثم قال في حسرة والم :

ـ لا يا اخي ، انه قائدنا الراحل . لقد كان شعلة بالرغم من ان سنه لم تتجاوز الثانية عشرة .

ـ وهل استشهد ؟

ـ نعم لقد قتلته طائرة فرنسية وهو يراقب معركة بين فرقة من جيش التحرير والفرقة الاجنبية الفرنسية .

ـ لكن ، من علمك التمريض يا صديقي الصغير ؟

ـ شاب صغير ، جاء من هناك .. هناك .. من مدينة « قسنطينة »، انه علمنا القراءة والكتابة ايضا .

ونظف صديقي الصغير الجرح « بالكحول الابيض » ، ووضع فيه قطرات من « صبغة اليود » ثم ذر عليه المسحوق وراح يشد عليه الرباط .

ـ لكن قل لي يا اخي المجاهد ، كيف جرحت ؟

ـ عندما نفذت الذخيرة والماء ، امرنا قائدنا بالانسحاب ، فكسرنا الحصار وكنت من الذين كلفوا بحماية الانسحاب . وبينما نحن نبتعد عن المعركة اصابني جندي فرنسي كان يكمن وراء صخرة برصاصة في فخذي ، فعدوت قليلا ، ثم سقطت .

ـ ثم وقعت بين ايدي الفرنسيين ؟

ـ نعم . بعد ان سقطت ، وابتعد زملائي ، تقدم خمسة من جنود الاستعمار شاهرين رشاشاتهم ، وبعد ان جردوني من السلاح اخذوني الى قائدهم ، وكان هذا القائد يعرفني جيداعندما كنت في الجيش الفرنسي. ان اسمه « الكابتن جاك » . وعندما وصلت اليه قال لي :

ـ صالح الازرق .. لقد فررت من عندنا ، وانضممت الي الفلاكة ..

ـ انكم انتم هم الفلاكة ، لانكم جئتم من بلادكم لتنهبوا اموالنا ، وتقتلوا نساءنا واطفالنا .

وصاح الكابتن الفرنسي في غضب :

ـ سوف اقتلك .. سوف اقتلك ايها المجرم ..

ثم رفع رشاشته وصوبها نحو اذني وافرغ كل خزينتها .

ـ اطلق عليك اثنتين وثلاثين طلقة .. ولم تمت !..

ـ نعم يا صديقي الصغير .. لقد توهم ان الرصاص نفذ الى رأسي .

ـ انها ضربة جبان .. فالطلقات لم تأخذ معها سوى جزء بسيط من اذنك .

ـ سوف ابعث له برسالة ، وفيها خصلة من شعري الابيض ، حتى يتأكد النذل ان رصاصه لم يقتلني .

وحدق صديقي الصغير في بعينين تخالطهما الدهشة ، وسكت قليلا ثم صاح في فرح ودهشة :

ـ اذن .. انت « صالح الازرق » ؟

ـ نعم يا صديقي الصغير .. لكن كيف عرفتني ؟

ـ لقد سمعنا الكثير عن بطولاتك ، وعن شجاعتك التي ابيض لها شعرك وانت لا زلت شابا .

وبعد ان عالج صديقي الصغير جروحي التفت الى زملائه وقال لهم في حزم :

ـ اعدوا حمالة من العصي والحلفاء و « البرانس » ، يجب ان نحمل اخانا المجاهد الى كهف « شقة اليهودي » ونسهر على راحته ريثما نبلغ قيادة « الناحية » .

ـ لكن كيف تستطيعون حملي يا صديقي الصغير .. انكم صغار ..

ـ لا يا اخي ، اننا رجال : لقد خلقت منا ثورتنا العظيمة رجالا قبل الاوان .

يا لجنون فرنسا ! انها تريد ان تهزم شعبا فيه اطفال كهؤلاء ...

القاهرة

عثمان سعدي